

أعدائه وشيئته جميعاً على موازين البحث الصحيحة ليخلصوا
بنتيجة ترضى العقل وتمسح حاجة التفكير غير مباليين أن تكون
هذه النتيجة مما يمدح به أو مما يمدد الناس نقصاً؟ فإن أنا عرضت
عليكم شيئاً من هذا فهذه معذرتي وهذا رأيي ، ولعلني لا أكون
قد أهدت أو جانبت الصواب فيما ذهبت إليه

ربيع المتنبي

أيها السادة ! لقد منى أبو الطيب المتنبي بصنفين من الناس
كان لكل واحد منهما من الأثر في حياته وفي أخباره التي
تتوارثها إلى اليوم أقبح الأثر ، ولولاها لعاش الرجل عيشة هادئة ،
ولولاها لكانت صحيفته في تاريخ الشعر والشعراء غير الصحيفة
التي تقرؤها اليوم ، ولولاها لما وجد الباحث عنه هذا الفموض
وهذا التناقض اللذين يمانيهما الآن . أما أحدهما فجاعة من ذوى
المكائنة بين الناس وأصحاب الجاه خافوه على أنفسهم ورهبوا أن تمتد
مطامعهم إلى مكانتهم وجاههم ، أو طمعوهم منه في أن يملقهم ويرائهم
فيرد حضرتهم كما كان غيره يردها وكما كان هو يرد حضرة غيرهم
من الملوك والأمراء فلم ينالوا ذلك منه ، أو دفعت أبا الطيب
نوازع نفسية فتال من أعراضهم فكانوا لأحد هذه الأسباب
أولها كلها مجتمعة يحتمقون عليه وينفضون من شأنه ، وكانوا مع ذلك
يؤلبون عليه الشعراء والمعلماء ليتالوا منه ويؤذوه في نفسه وفي
شمره . وكان أبو الطيب يخشاهم ويرهب سلطانهم ، بل لم يكن
يخشاهم على نفسه فحسب ، وإنما خشيمهم على بعض أصدقائه ومن
يشفق عليه ، فقد حدث أبو اسحاق الصابي قال : « راسلت
أبا الطيب رحمه الله فني أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف
درهم ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار ، فقال : (قل له
والله ما رأيت بالمراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب على
في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك فنكر
لك الوزير (يعني أبا محمد المهلبى) وتغير عليك لأنني لم أمدحه ، فإن
كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمت وما أريد
منك نالاً ولا من شمرى عوضاً) ، فتنبت على موضع الغائط ،
وعلمت أنه نصح فلم أعاوده اهـ . وأما الصنف الآخر فجاعة
ممن كانوا يأملون أن تكون لهم المنزلة التي أدرکها من الخطوة
عند الملوك ، وحرص كل واحد منهم أن يكون أبو الطيب من
بطلاته وتنافسهم في ذلك ، فلما لم يبلغ هؤلاء المؤمنون هذه الأمنية

أبو الطيب المتنبي

للأستاذ محمد محي الدين عبد المجيد

موضوعات هذا البحث

وبعد فلقد فكرت طويلاً فيما عسى أن يكون موضوع كفتي
التي أشراف بالقائها بين يديكم من مناحي المتنبي ، وعرضت مسائل
البحث على خاطري ، فكنت كلما فكرت في أمر وجدت له
ما يبرر التوجه إليه ، ووجدت مع ذلك من الشبهات ما يذودني
عنه ويقطعني عن الاسترسال فيه ، ولكنني استطلعت في آخر الأمر
أن أضع نفسي بأنتى وافد الأزهر إليكم ، وبأن الأزهر هو المعهد
الذي يقوم على حراسة الدين أصوله وفروعه وعلى حيطة العربية
وآدابها ، وبأن بحث من يمثل الأزهر يجب أن يكون متصلاً
بمنا يؤديه الأزهر للعالم من أمانة وما يضطلع به من أعباء ،
فاستقام عندي بعد هذه المقدمات أن يدور بحثي حول « دين
المتنبي وأخلاقه وتنبئه وموقفه من النجاة » ؛ وما كنت أتعنى
من ذلك الأمر وأخلص من التفكير بهذه النتيجة حتى عرض
لي أمر آخر ألقى له بالي كله ، وذلك الأمر هو المقصود بهذا
المهرجان : وهو تقرير المتنبي والثناء عليه ، إما باطرانه وكيل
المدح له إن حقاً وإن باطلاً ، وإما بانارة الجليل من أخباره وشمره
والاعراض عما عسى أن يفض من شأنه ، أم هو بحث المتنبي من
جميع وجوهه لوجه الحق من غير تعنت ولا تحيز؟ ولم أزل أفكر
وأقدر للأمر حتى أيقنت أن هذا الحفل الذي يجمع أقطاب
الأدباء والمعلماء من كل قطر لا يمكن أن يستوى عنده الأسمان
فإن فرق ما ينشأ أوضح من أن يدل عليه ، وأى إنسان يستطيع
أن ينسى الفرق بين حفل يجتمع لتكريم رجل وبين حفل يجتمع
فيه صفوة الأدباء لدراسة رجل من رجال الأدب كان له أشياع
وأعداء ، وكان أشياعه ينشرون بمدحه ويذيمون فضائله
ويتأولون له ، وكان أعداؤه يملأون الأرض عجيحاً حوله ويرمونه
بكل نقائص الانسانية وهم لا يتورعون عن الكذب فيما يحدثون
به من أخبار . أليس من أول ما يلزم الباحثين أن يعرضوا مقالات
(٥) وهي الخطبة التي ألقاها الأستاذ في مهرجان المتنبي في الحنجع المسمى
الربيعي بمدينة الأزهر

أكل الحقد عليه قلوبهم ، واشتملت جذوة الحسد بين جوارحهم ، فتفتنوا في القول عليه والذس له ، ونشروا عنه من القابح ما لم يكن يعلم من أمر أكثره شيئاً ؛ ولم يكتفوا بأن يعملوا على إبعاده عن الملوك الذين كان التقرب إليهم منتهى آمالهم ، بل حاولوا التفريق بينه وبين الجمهور ، فجأؤوه من ناحية الدين ثقة منهم أن للدين في نظر جمهرة الناس وعامتهم المنزلة الأولى ، فإذا أتى الرجل من جهته فقط سقط وإن بقي له كل شيء .

رموه بأنه كان رفيق الدين تاركاً لأركان الإسلام ، ورموه بأنه كان يستخف بالأنبياء ويستصغر شأنهم ، ورموه بأنه ذهب في الفلسفة مذهباً بعيداً عما يعتقد المسلمون ؛ وقد نسوا حين رموا أبا الطيب بذلك كله أن دين الإسلام شديد الصرامة في حكم هذه المسألة ، وأنه لا يحل لمن يعتقد أن يرى أخاه بأمثال هذه التهم لأرضاء حفيظة نفسه حتى يكون بين يديه دليل لا يقبل التأويل . ولنا حين نتشكك في أخبار هؤلاء الناس أو ننكر استنتاجهم ندعى لأبي الطيب أنه كان رجلاً صالحاً ورعاً يقوم الليل ويصوم النهار ويبطل العبادة وقراءة القرآن ، ولكننا نفعل ذلك لتقرر أن حياة أبي الطيب قد أحاطها أعداؤه بكثير من النموض وأحاطوها مع هذا النموض بكثير من الأكاذيب والمفتريات كان من شأنها أن تريك حياته سلسلة من التناقضات

حكى علي بن حمزة البصري قال : « بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة : وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خصال ذميمة : وتلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن » وهذا خبر لم يذكر قائله معه رجها يقربه من الصدق . وهل يستطيع إنسان في الدنيا أن ينق عن آخر فعل شيء حتى يزعم أنه لزمه طول حياته فلم يفارقه . وأنه ما رآه يفعله قط ؟ ثم إن أمر الصوم في حديث علي بن أبي حمزة أهون من أمر الصلاة وقراءة القرآن ، فهو يستطيع أن يدعي مرة أخرى أنه رأى أبا الطيب كل عام في شهر رمضان في حلب ومصر والعراق وشيراز وسائر البلاد التي وطئها قدما أبي الطيب ، وأنه رآه مع ذلك يأكل أو يشرب نهاراً ، يستطيع أن يدعي هذا كله وحينئذ يتم له ما أراد من أنه بلا من أبي الطيب خلة ذميمة وهي أنه ما صام ، ولكن أتى له أن يدعي ذلك . فأما أمر الصلاة وقراءة القرآن فنحن نسأله : أ كان قد لزم أبا الطيب في مفداه ومراحه ومتيقظه

ومنامه حتى يستطيع أن يزعم أنه ما صلى ؟ وشيء آخر ، ذلك أنه بلا منة خلة محمودة وهي أنه ما كذب ، فهل سأله عن صلاته وقراءته القرآن فحدثه وصدقه الحديث أنه ما صلى ولا قرأ القرآن ؟ والحق أن علي بن حمزة البصري رجل أراد أن يرى أبا الطيب بما رأى به أمثاله أمثال أبي الطيب من قبل ، وبما لا يزال أمثاله يرمون به أمثال أبي الطيب إلى اليوم . يريد بذلك أن يرضى خصوم أبي الطيب أو يشبع شهوة الانتقام منه ، وأراد أن يعصى على الناس ويحملهم على تصديقه ، فذكر في صدر حديثه أنه بلا منة ثلاث خلال محمودة ، وهذه العبارة فيما نعلم من أمر الناس إحدى الدلائل على اختلاق الحديث . هذا وقد ذكر أبو الدلاء في شأن صلاة أبي الطيب قال : « وحدثت أن أبا الطيب أيام كان أقطاعه بصف رؤى يصلي بموضع بمجرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب ، وأنه صلى العصر ركعتين ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر وأن القصر له جائز » فهل يمكن أن يكون خبر علي بن حمزة بعد ذلك موثقاً به ؟ فأما تناول التنبي وأنه رأى أن القصر له جائز فأمر آخر ليس بمحت من شأننا الآن ؛ وقراءة القرآن التي زعم علي بن حمزة أن أبا الطيب لم يفعلها ، أتى الناس من يعقل أن رجلاً نشأ على حفظ اللغة واستظهار غريبها ، والتنقل في البوادي ليلقطها من أفواه الأعراب يجد القرآن بين يديه وهو كتاب لينة وأسلوب وفكر ، فوق أنه كتاب هداية وخلق وآداب ، ثم لا يقرأه ليتأسى به ويتقيل أساليبه ويتخذ من اطراد منطقته وإحكام الحجج فيه منهجاً لنفسه ؟ ونحن نذكر لعل بن حمزة أن أبا الطيب قد قرأ القرآن وفهمه ، وتذكر له مما يشير إلى ذلك قوله من قصيدة يمدح بها كافوراً :

كان كل سؤال في مسامحه قميص يوسف في أجفان يعقوب
وقوله من قصيدة يمدح فيها محمد بن زريق الطرسومي :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموصا
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
فأما ما ذكره من استخفافه بالأنبياء واستصغاره شأنهم وعدم مبالاته بأصول العقيدة ، فقد رأينا فيما جمعناه من كلام أبي الطيب مما هو متصل بهذه المسألة أن بعض ما ذكره أهون من أن يؤبه له كقولته :

ما مقابى بأرضي نخلة إلا كقيام المسيح بين اليهود

وكقوله :

إنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود
وأى شيء في أن يشبه نفسه وهو يقيم بين قوم يمتدق أنهم
أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود ؟ وأى شيء في
أن يدل على أن بقاءه بين قوم لا يجانس بينه وبينهم غربة تشبه
غربة صالح عليه السلام ، إذ كان يعيش في وسط لا يرون رأيه ؟
وبعض ما أخذوه عليه تجذله محملا في الكلام لو أنت حملته عليه
لم يكن به بأس ، وذلك كقوله في قصيدة مدح بها الحسين
ابن اسحاق التنوخي :

فارتزق الأقدار من أنت حارم وما تحرم الأقدار من أنت رازق
فانه يمكن أن يكون قد أراد أن الحسين بن اسحاق رجل
موفق إلى السداد وإصابة المقادير فهي تجري دائما موافقة لما
اهتدى إليه ولا شيء في ذلك فيما نظن . وأما بقية ما أخذوه عليه
فداحل في باب المبالغة التي تجرى على السنة الشمراء وهي لم تخلط
قلوبهم ، وأبو الطيب كثير المبالغة في شعره ، ونحن نأخذها عليه
من الناحية الأدبية ولا نستدل بها على فساد عقيدته ؛ فن ذلك
قوله في مدح محمد بن زريق :

لو كان للنيران ضوء جبينه عبت فصار المألون مجوسا
ومن ذلك قوله من قصيدة يقولها في صباه :

عمرك الله هل رأيت بدورا طلعت في برقع وعقود
رايات بأسمهم ريشها الهدى تشق القلوب قبل الجلود
يترففن من فم رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
وقد اعتذر الناس عن قوله : « هن فيه أحلى من التوحيد »
بوجوه : أحدها قاله ابن جنى وملخصه إنكار هذه الرواية ،
والرواية عنده « هن فيه حلوة التوحيد » وقد سرى إلى ابن
جنى داء النحاة في تحريف الشواهد وتغييرها على ما يوافقهم .
والوجه الثاني : « تفسير التوحيد بأنه عمر من ثمار العراق حلوة
المدائق ، والوجه الثالث قاله المكبري وملخصه أنه ليس المراد
تفضيل حلوة الرشقات على حلوة التوحيد ، وإنما المراد تقريب
حلوتها من حلوته لأن حلوته ثابتة غير مشكوك فيها وحلاوتها
غير معروفة ، وذاتك الوجهان من باب التحللات البعيدة كما ترون ،
وليس لنا إلا أن نعترف بأن هذا غلو أفرط فيه أبو الطيب فتجاوز
الحد . ومن ذلك قوله من قصيدة مدح بها أبا شجاع عضد الدولة

الناس كالعابدين آلهة وعبده كالوحد الله

وقوله من قصيدة مدح بها بدر بن عمار :

لو كان علمك بالآله مقسما في الناس ما يمث الآله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن والتوراة والأنجيلا
وكل هذا من الغلو البعيد كما قدمنا ، ونحن نعتب عليه أنه قد
أسلس العنان لفكره حتى جال في هذا الميدان ، فلا بدع أن يتنلى
من غباره وتصيبه إحدى قذائفه

فأما ما أهموه به من الذهاب في فلسفته مذهبا لا يقره
الاسلام فإني أبادر بانكار ذلك عليهم وأعرض عليكم شيئا مما
ذكروه لتبينوا بأنفسكم أنهم لم يكونوا منصفين حين نسبوه إلى
ما نسبوه إليه ؛ زعموا أنه أنكر المعاد لقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان لالث الحالين معنى سوى معنى اتبهاك والنام

وأى دليل في هذا الكلام على إنكار المعاد ؟ وأى شيء في أن
تقول : « إن للموت معنى غير معنى النوم واليقظة ؟ ومن ذا الذي
يزعم أن معنى الموت هو معنى النوم واليقظة أو أن حال الانسان
فيه كحالهما » وزعموا أنه يرى رأى السوفسطائية الذين ينكرون
ثبوت حقائق الأشياء لقوله :

هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالعلم

ولو كان ذلك من مذهب السوفسطائية لما جاز لأحد أن
يشبه شيئا بفسده إذا اشتركا في أمر من الأمور ونحن ما نزال
نسمع الناس يقولون إن نوم فلان ويقظته سواء إذا كان لا يستفاد
من يقظته أو كان لا يجد الراحة في نومه كما لا يجدها في يقظته .
وما زال نسمعهم يشبهون الوجود بالمدوم والنير بالمظلم . وهكذا
يجرى على الألسنة من غير أن يلتفت أحد إلى هذا الذي زعموه
ونسبوه إلى القول بقدم العالم مستتجين ذلك من قوله في قصيدة
رئى فيها أخت سيف الدولة :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم

إلا على شجب وانظف في الشجب

فقبل تخلص نفس المرء سالة

وقيل تشرك جسم المرء في العطب
وهذا استنتاج لا يقضى المجب منه ، بل أنا أصارحك
- ولا ضير على في ذلك - بأننى لم أعرف وجه هذا الاستنتاج ،